

أولا باللجوء إلى أقرب الناس إليه وهو ابنه ، فان لم يجد فصاحبه فأخوه ، فعشيرته ثم تغشاه الحيرة ويعميه الاضطراب والتخبط فيطلب النجدة من كل من في الأرض جميعا إذا كان إلى ذلك سبيل . وبهذا جاء نسق المتعاطفات في هذا الاستشهاد الثاني مؤديا لهذه الدلالة وموحيا بها .

أما الاستشهاد الثالث فان نسق المتعاطفات فيه « لا يجرى وفق مراتب الحب ودرجاته ، بل يجرى وفق الغاية التي يهدف إليها النص ، فقد روعى فيه الترتيب الطبيعي الذي يتفق وموقف الخشية من موالاة الأعداء في الحرب على المؤمنين » (١٠٧) فجاء ذكر الآباء أولا ؛ لأن تأثيرهم أشد في حين تأخر ذكر الزوجة ، لأن دورها في صرف زوجها عن مناصرة دين الله والتضحية في سبيله أقل تأثيراً .. وهكذا .

ويعترف الباحث بأن بعض المفسرين لم يغب عنه دلالة ترتيب المتعاطفات في الاستشهادين الأول والثالث ، كما يدل على ذلك كلام الزمخشري في الاستشهاد الأول ، وما نقله الباحث عن صاحب تفسير المنار في الاستشهاد الثالث ؛ على حين لم يلتفت أحد منهم - كما يقول - إلى هذه الدلالة في الاستشهاد الثاني ، وقد ألقى تبعة انصراف المفسرين القدامى في هذا الشأن على البلاغيين ، لأن المفسرين تأثروا بهم ، وانساقوا وراءهم في إهمال النظر في عطف المفردات (١٠٨) . وهو اتهام لا نقره عليه لأن الزمخشري وغيره من المفسرين القدامى والمحدثين - باعترافه هو - تنهوا إلى مغزى ترتيب المفردات المتعاطفة في الاستشهادين الأول والثالث . وذلك ينقض الاتهام من أساسه . على أن الأمر في عطف المفردات أهون كثيرا مما ذكر الباحث ، واندفع بسببه إلى التجاوز في الحكم ، فجعل بلاغة عبدالقاهر « بلاغة التركيب اللغوي للجملة » على حين سمى بلاغة الجاحظ وما يجرى مجراها من تعاطف المفردات « بلاغة التنسيق الفني » (١٠٩) . وإذا صحت التسمية بالنسبة لعبدالقاهر فإنها لا تصح بالنسبة للجاحظ، لمجرد أن عبدالقاهر استشهد بفقرة من

(١٠٧) بلاغة العطف في القرآن ص ١١٣ .

(١٠٨) انظر السابق : ص ١٠٦ .

(١٠٩) انظر السابق : ص ١٠٣ .